مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية
المجلد (١٥) العدد (٥) حزيران (٢٠٠٨)

نشاطات الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية الفرنسية في العراق في ظل الحكم العثماني (١٥٣٤ – ١٩١٨)

وليد خالد يوسف

كانت بداية دخول البلاد العربية في ظل الحكم العثماني في عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢ – ١٥٢٠) والذي يمثل عهده بداية المرحلة الثانية من مراحل توسع الإمبراطورية العثمانية[١]، واكتمل دخول العالم العربي في المرحلة الثالثة على يد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٦)، الذي امتدت فتوحاته إلى أوروبا واسيا وأفريقيا وحوض البحر الأبيض المتوسط. وتم إخضاع العراق لحكم العثمانيين على مراحل منذ عام ١٥٣٤ إلى عام ١٥٦٦م، ليكون العراق بأكمله تحت الحكم العثماني إلى عام ١٩١٨.[٢]

وكانت فرنسا من بين الدول الأوربية التي استغلت حاجة الإمبراطورية العثمانية لمستلزمات حروبها وفتوحاتها من سلاح وتجهيزات حربية لفترة تقرب من ثلاثة أرباع القرن، وقد استفادت فرنسا بالتحديد من الأموال الطائلة التي جنتها من مبيعاتها للسلاح لهذه الإمبراطورية الفتية[٣]، الأمر الذي مهد لها لمحاولة تنفيذ ما كانت تسعى لتحقيقه في أيجاد طريق تجاري بديل لطريق رأس الرجاء الصالح البحري الذي كان يعتبر طويلا نسبيا، حيث كانت ومنذ الحروب الصليبية تعتبر أسيا الصغرى وبلاد الشام والعراق من المنافذ التجارية القصيرة والتي توصلها إلى الهند والصين. فكانت البداية عندما استغلت فرنسا بوادر ظهور عجز في مالية الدولة العثمانية جراء ما استنزفته حروبها المتواصلة، فعرضت فرنسا عليها بعث النشاط التجاري في عدد من الموانئ والمدن في ولايتها، حصلت فرنسا بضوء ذلك على عدد من المعاهدات مع الدولة العثمانية سميت (بالامتيازات)، وكان أولها معاهدة (السلام والصداقة والتجارة) عام ١٥٣٥، التي وقعها السلطان العثماني سليمان الفاتح والملك فرانسوا الأول الذي كان بحاجة الى حليف يساعده في الدفاع عن ملكه الذي كان يهدده ملك أسبانيا شارل كون[٤]. تلتها معاهدة عام

١٥٦٩، وبموجبها أباحت الدولة العثمانية حرية التنقل للرعايا الفرنسيين بين الموانئ العثمانية وممارسة التجارة فيها، وضمنت لهم الحصانة في منازلهم، وإعفائهم من الخضوع للقانون المدني وقانون العقوبات العثماني، بالإضافة إلى غيرها من الامتيازات، وباستمرار حروب العثمانيين مع إيران من عام ١٥٧٦الى عام ١٥٨٨ والتي استنفذت موجود خزانة الدولة العثمانية، فأنها اضطرت لتوقيع معاهدة جديدة مع فرنسا عام ١٥٨١ والتي تم تجديدها عام ١٥٩٧، وكان الطابع العام لامتيازات هاتين المعاهدتين يتعلق بالأمور التجارية وحقوق الرعايا الفرنسيين الأمر الذي سمح لها بالتغلغل والتمركز في المناطق العربية والتي من خلالها مدت طريقها التجاري باتجاه الهند. كما منحت الدولة العثمانية امتيازا جديدا للفرنسيين بضوء معاهدة عام ١٦٠٤ التي بموجبها أصبح المبشرين الفرنسيين تحت حماية الدول العثمانية، حيث سمحت لهم بالإقامة والتنقل دون أي مضايقة وعلى أن ينالوا حسن المعاملة والمساعدة إكراماً لملك فرنسا وتعبيراً عن المودة نحوه، وأعقبتها اتفاقية عام ١٧٤٠م التي أكدت حماية فرنسا، وليس الدولة العثمانية لرجال الدين الفرنسيين المنتشرين على أراضي الإمبراطورية العثمانية(٥).

ومنذ أوسط القرن الثامن عشر أخذ النفوذ العسكري الفرنسي بالظهور في الخليج العربي لمؤازرة حليفتها الدولة العثمانية التي كانت تسعى الى اضعاف النفوذ الفارسي في المنطقة من خلال أضعاف تواجد بريطانيا الحليف القوي للدولة الفارسية. وقد نجحت البحرية الفرنسية في تشرين الأول عام ١٧٥٩ في تدمير منشأت وكالة شركة الهند الشرقية في ميناء بندر عباس(٦).

وبضوء تلك الامتيازات تحقق لفرنسا وجود فاعل في ولايات الدولة العثمانية ومن بينها ولايات العراق الثلاث بغداد، والبصرة، والموصل، ومن خلال ذلك مارست نشاطاتها التجارية والسياسية والدينية، وقد اهتمت فرنسا كثيرا بموضوع نشر الكثلكة بين مسيحي العراق، فتحت هذا الغطاء سيمكنها نشر اللغة والثقافة الفرنسية الأمر الذي سيوجد لها شريحة اجتماعية من أهل البلاد تدين لها بالولاء الطائفي الديني والثقافي تخدم مصالحها الاقتصادية والسياسية بعيداً عن الهدف الحقيقي الذي يسعى المبشرون الكاثوليك لتحقيقه وهو (المسيحية المثالية) الذي بشر ونادى به هذا المذهب. وكان الفاتيكان قد أسس لأجل

ذلك (مجمع انتشار الأيمان "بروبغند") عام ١٦٢٢، هدفه نشر المذهب الكاثوليكي في العراق تحديداً، حيث أنطلقت منه عدة أرساليات تبشيرية تحمل أسماء مختلفة هي (الاوغسطينيون، والكبوشيون، والكرمليون، والدومنيكان)[٧].

عادت فرنسا الى أستخدام الدين المسيحي ونشرالمذهب الكاثوليكي، بالرغم من فشلها في ذلك خلال الحملات الصليبية، بعد ان وجدت جدوى ذلك مرة أخرى على يد البرتغاليين الذين سارعوا للحصول على مباركة البابا[٨] وموافقته عام ١٦٢٢، حيث انطلقت رحلاتهم الاستكشافية نحوالعالم الجديد وفي أفريقيا واسيا، بهدف تجاري وهدف ديني[٩]، يحقق للملك نفوذا اقتصاديا وسياسيا كما يحقق للبابا نفوذا دينيا واسع الأنتشار في المجتمعات الوثنية أو المجتمعات المسيحية التي بقيت كنائسها خارج نفوذ وسلطة الفاتيكان.

لم تكن فرنسا أو البرتغال وأسبانيا الوحيدة التي لجأت إلى غطاء الدين المسيحي لتحقيق أهدافها السياسية والاقتصادية، بل تبعتها في ذلك بريطانيا والولايات المتحدة[١٠] في فترات لاحقة عندما اكتشفت أن نشاطات الإرساليات التبشيرية أخذت تحقق نجاحات سياسية واقتصادية بالغة الأهمية. ولم يكن عمل الإرساليات التبشيرية المسيحية على العموم سهلا، خاصة في بداياته وذلك بسبب حالات الرفض والتقاطع في الأفكار والمفاهيم بين حملة الأفكار الدينية الجديدة وبين المواطنين المسيحيين من إتباع المذهب الأرثوذكسي الذي يمثل قيم الكنيسة الشرقية، لا بل أن الرفض شمل المسلمين سكان البلاد الأكثر عددا والأوسع انتشارا على عموم مساحة ولايات العراق الثلاث، وقد ساهم المبشرون الغربيين بتأجيج النعرات والأزمات الطائفية نجم عنها منازعات وخصومات وفتن بين أبناء الدين الواحد[١١]. وما كانت هذه الخصومات والمنافسات إلا انعكاسا لحالة التنافس والصراع بين المبشرين الفرنسيين والمبشرين الانكليز والأمريكان، حيث اندفع بعضهم في تيارات الصراع على المصالح الاستعمارية لدولهم[١٢]. الأمر الذي خلق حالة من التعصب المذهبي على حساب القيم الدينية التي يفترض أنهم يؤمنون بها. ولأجل الإلمام بمجمل النشاطات الفرنسية المنظمة في العراق خلال فترة الحكم العثماني، فإننا

سنتناول تلك النشاطات في كل ولاية من ولايات العراق الثلاث والتي ابتدأت في ولاية البصرة ومن ثم بغداد وبعدها الموصل، وكالاتي:

١- النشاط التبشيري في ولاية البصرة:

كانت ولاية البصرة أولى مناطق العراق التي شهدت بدايات النشاطات الفرنسية، وكان ذلك على يد المبشرين الفرنسيين من الآباء الكرمليين[١٣] الذين وفدوا إليها عام ١٦٢٣م[١٤]. لقد تأخر قدوم الفرنسيين إلى البصرة وبقية ولايات العراق بالرغم من ان الحكومة الفرنسية قد وقعت معاهدات (الامتيازات) مع الحكومة العثمانية قبل سنوات طويلة، وذلك بسبب اهتمام فرنسا بالموانئ والمدن العربية التجارية الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، حيث قامت بتوطيد علاقاتها ومصالحها فيها كي تكون بمثابة رأس الجسر الذي تروم مدّه من سواحلها في أوروبا إلى الضفة المقابلة لها في آسيا، ومن بعد تنطلق نحو هدفها التالي لتأمين طريق تجاري بري ونهري يوصلها إلى البصرة ومنها إلى الهند، وهو في نظرها أقصر وآمن من الطريق التجاري الذي كانت تعتمده حتى القرن السادس عشر والمتمثل بطريق البحر الأحمر ومنه عبر الصحراء إلى ميناء طرابلس وبيروت، بالإضافة طبعا لأهم الأسباب وهو سيطرة البرتغاليين على طريق رأس الرجاء الصالح البحري ومن بعدهم الهولنديين.

كانت إرساليات المبشرين الكاثوليك محدودة العدد، بسبب محدودية نشاطات فرنسا التجارية وقلة رعاياها المتواجدين في البصرة، بالإضافة إلى عدم تجاوب المسيحيين الأرثوذكس من أهالي المدينة معهم في بادئ الأمر[١٥]، إلا أن ولاة البصرة وعلى تعاقبهم كانوا يكنون الآحترام للرهبان الفرنسين، وكنوا ينصفونهم ولو كانوا غرمائهم من المسلمين، مثالنا على ذلك ماجاء في مذكرات الأب الفرنسي سبستياني (المفتش الرسولي لدراسة احوال النصارى في الملبار الهندية) والذي مرَ بولايات العراق أربع مرات خلال ذهابه الى الهند وعودته منها، ومما جاء في مذكراته قوله: "... وكان الرجل (يقصد به والي البصرة العثماني)، يكن للرهبان أحتراما وحباً، ويتحدث معهم كأصدقاء، وكان تجارالبلدة من مسلمين وهراطقة وغرباء يزورون الدير ويطلبون مساعدة الرهبان لتمشية امورهم عند الوالي، وحدث قبل فترة وجيز من وصولنا إننا ربحنا دعوى بواسطته ضد الأتراك انفسهم،

فقد شيدوا مسجداً بالقرب من كنيستنا، وعندما فرغوا من بنائه طلبوا هدم الكنيسة بحجة أن الشريعة تأمر بذلك..."[١٦].

وكان البروبغندا يتعمد إرسال مبشرين يمتهنون الطب إلى جانب واجباتهم الدينية لتكون وسيلة للتقرب من الأهالي، وذلك لانعدام هكذا خدمات في بداية فترة الحكم العثماني لعموم العراق. وقد بدر من البعض من هؤلاء المبشرين تصرفات كانت خارج نشاطاتهم الدينية ومنافية لأخلاقيات الدين المسيحي، حيث ثبت تورطهم في إثارة النعرات الطائفية بين المسيحيين من أهل البصرة، وتدخلهم في الأمور التجارية لصالح التجار الفرنسيين وما إلى ذلك من الممارسات الخاطئة التي أدت إلى مواجهات عنيفة بينهم وبين أهالي البصرة، الأمر الذي دفع بالحكومة الفرنسية إلى إعلان حمايتها بشكل اكبر للإباء الكرمليين منذ عام ١٦٧٤م[١٧] إلا أنهم استمروا في تغذية النعرات الطائفية التي طالت حليفة بلادهم، الدولة العثمانية، عندما اتهموا السلطات العثمانية بالتفرقة في معاملة المسيحيين وعدم تطبيق القوانين بشكل متساوي على جميع الرعايا من مسلمين ومسيحيين، والتمييز بين هؤلاء الرعايا في حق التملك وما يتعلق بالحريات الشخصية.[١٨] في حين أن والي البصرة حسن باشا (١٧٢١-١٧٢٣) سمح للمبشرين الفرنسيين ببناء دار لهم في مدينة البصرة[١٩].

وبالإضافة إلى نشاطاتهم الدينية، مارس الرهبان الفرنسيون الواجبات التي أوكلت إليهم لمتابعة أمور التجارة وأمور إدارة القنصلية الفرنسية في البصرة في بدايات عملها. وبسبب قلة ومن ثم انحسار الأنشطة الفرنسية عموما في ولاية البصرة، فان نشاطات الآباء الكرملين في مجال التربية والتعليم كانت تقريبا مفقودة طيلة فترة عملهم في البصرة، ولم يظهر هكذا نشاط إلا مع بدايات القرن العشرين، حيث أسسوا في عام ١٩٠٢ أول مدرستين ابتدائيتين في مركز البصرة، وفي مركز مدينة العمارة وكانت الدراسة فيهما مختلطة وفي عام ١٩٠٦ أسسوا مدرسة أبتدائية للبنات أشرفت عليها الراهبات الفرنسيات وهي (مدرسة راهبات التقدمة) والثانية عام ١٩٠٧ وهي (مدرسة اللاتين للبنات)[٢٠].

٢- النشاط التبشيري في ولاية بغداد.

شهدت ولاية بغداد قدوم أولى الأرساليات التبشيرية الكاثوليكية عام ١٦٢٢، وكانوا من الآباء الكبوشيون[٢١]، وكانوا جميعهم من اصل إيطالي واستمر تواجدهم إلى عام ١٧٠٨ وقاموا ببناء دير وكنيسة عام ١٦٢٨ ألحقت بها مدرسة ابتدائية لأبناء طائفتي السريان والأرمن الكاثوليكية وبالإضافة الى نشاطاتهم الكنسية والتربوية فقد مارس الآباء الكبوشيون الطب، وقدموا خدماتهم الطبية للأهالي بدون تمييز ديني او طائفي[٢٢]. وقد مهد الآباء الكبوشيون الايطالي الجنسية الطريق لأرساليات الآباء الكرمليين الفرنسيين في بغداد والموصل حيث قدموا الى هذه الولايات بعد انتهاء عمل الآباء الكبوشيين.

وعن الآباء الكرمليين فقد مر أكثر من واحد منهم ببغداد خلال القرن السابع عشر مثل الأب سيمون عام ١٦٠٨ م، والأب فيليب عام ١٦٢٩، وذلك أثناء رحلتهم نحو الشرق الأقصى حيث نشطوا هناك[٢٣]. أما أول راهب كرملي فرنسي أقام وعمل في المجال الديني التبشيري فهو الأب عمانوئيل بابيه وذلك في عام ١٧٢٨[٢٤] وهو من أهم الاباء الكرمليين الذين رسخوا المذهب الكاثولكي في بغداد، ففي عام ١٧٣١ أشترى داراً واسعة في منطقة (سوق الغزل) وسط بغداد، وأجرى عليها بعض الاصلاحات والترميمات وحولها الى ديراً وفتح فيها (معبداً)، وبعد أن التحق به عدد من الرهبان الكرمليين، افتتح في نفس الدار مدرسة ابتدائية للبنيين وذلك عام ١٧٣٧[٢٥] لقد كانت نشاطات الأب بابيه تتم بعلم وموافقة والي بغداد احمد باشا (١٧٢٣-١٧٤٧) الذي تسلم خطاب توصية مرسل من قبل نائب الملك الفرنسي في (بوند شيري)[٢٦] وقد أغاضت نشاطات بابيه الأرمن الأرثوذكس خاصة بعد أن تحول عدد منهم إلى المذهب الكاثوليكي، الأمر الذي أدى إلى تقديم شكوى ضده الى والي بغداد يتهمونه فيها بإثارة الفتن الطائفية، مما أضطره الى اعتقال بابيه عام ١٧٤١ وإغلاق مقر الإرسالية ببغداد، ولم يطلق سراحه الى بعد أن دفع فدية مالية كبيرة بتدخل مباشر من قبل سفير فرنسا في القسطنطينية[٢٧]. وبعد خروجه من السجن سافر الأب بابيه الى باريس وقابل الملك لويس الخامس عشر (١١٨٥-١٧٧٥) الذي أقنعه بضرورة استمرار عمل الكرمليين ببغداد، ولأجل عدم تكرارما حدث من أعتقال ومضايقة لأفراد هذه الارسالبية، فقد منح الملك لويس حمايته للأب

بابيه ومنحه الصفة القنصلية الرسمية ومبعوثاً لملك فرنسا في بغداد وذلك نهاية عام ١٧٤١، والتحق بابيه بعمله كأول قنصل فرنسي في بغداد عام ١٧٤٢ بالإضافة الى عمله الأساس كرئيس لأرسالية الكرمليين التبشيرية وعلى أثر ذلك وبسبب اتساع نشاطه الكنسي، فقد أمر الفاتيكان في نفس العام بترقية بابيه حيث أصبح أول أسقف كاثوليكي في ولاية بغداد واستمر في عمله القنصلي والكنسي لغاية وفاته في بغداد عام ١٧٧٣، هو وجميع أعضاء الإرسالية الكرملية بعد إصابتهم بمرض الطاعون الذي اجتاح ولايات العراق في ذلك العام الى نهاية عام ١٧٧٣[٢٨]، لم يكن بمقدورنا الحديث عن نشاطات قنصلية ونشاطات تبشيرية مستقلة عن بعضها البعض في تلك الفترة لأن الصفة القنصلية الممنوحة للأب بابيه لم تكن اكثر من غطاء ديلوماسي يوفر له الحماية الشخصية، ومن خلالها كان يرعى مصالح الرعايا الفرنسيين من الاباء الكرمليين الذين عملوا معه في الارسالية الكرملية.

اشرنا سابقا إلى حالة التداخل ما بين النشاط القنصلي والنشاطات التبشيرية التي كانت قائمة إلى عام ١٧٧٣، والتي شهدت بعد هذا العام تذبذبا إلى عام ١٨٢٥، حيث عاودت نشاطاتها بشكل دائمي بعد هذا التاريخ[٢٩]. وأسباب هذا التذبذب تعود الى الأضطرابات الداخلية التي عاشتها فرنسا بعد ثورة تموز ١٧٨٩ وما تلاها من أحداث كبيرة غيرت الحياة الداخلية للبلاد، ومنها ما طالت نشاطات الكنيسة الفرنسية بشكل خاص، حيث تم تحجيم دورها في المجتمع منذ أعلان قرارات ٤أب ١٧٨٩، التي ألغت ضريبة العشر التي كان يدفعها أبناء العامة فقط للكنيسة، وكذلك مصادرة أملاكها التي تقدر بـ (٢-٣) مليار ليرة ذهبية. وفي عام ١٧٩٠ صدر الدستور المدني للأكليروس الذي أعطى الشعب الفرنسي الحق في تعيين الأساقفة الذين تم تحديد رواتبهم ورواتب بقية الرهبان من قبل الدولة[٣٠]. وقد أنعكست هذه الأجراءات وما تلاها على نشاطات الأرساليات الكاثوليكية الفرنسية في الخارج ومنها ولايات العراق الثلاث، ولم تتواصل تلك النشاطات إلا بعد أن أخذت الأوضاع تستقر في فرنسا ولصالح الكنيسة بعد عام ١٨٢٥، بعد ان استقر الوضع السياسي لصالح النظام الملكي الذي تجاوز كل التبعات المالية

والسياسية والتي فرضت على فرنسا بضوء مقررات مؤتمر جنيف ١٨١٥ بعد القضاء على نظام حكم نابليون بونابرت.

وقد انعكس تحسن الأوضاع الاقتصادية لفرنسا على النشاطات الدينية والتعليمية والثقافية التي كانت تدعمها ماديا ومعنويا، و تحسنت وتوسعت تلك النشاطات في نهايات القرن التاسع عشر تحديدا، حيث أسست الإرسالية الكرملية مدرسة للبنات في بغداد عام ١٨٨١ سميت (المدرسة المركزية) أشرفت عليها مجموعة من راهبات التقدمة الدومنيكات.(٣١)

كما قام الاباء الكرمليين بتوسيع عمل ونشاطات المدرسة الخاصة بالأولاد والتي سبق وان تاسست عام ١٧٣٧ ليصبح اسمها الجديد (مدرسة القديس يوسف) وقد اصبحت في ما بعد من اجمل وارقى المدارس في بغداد ضمت المراحل الدراسية الثلاث الابتدائية، الرشدية، والاعدادية ومدة الدراسة فيها ثمان سنوات(٣٢)، وكانت تدرس فيها اللغة العربية وآدابها اضافة الى اللغة الفرنسية والادب والعلوم طبقا لمناهج المدارس الفرنسية، بالإضافة طبعا إلى دروس دينية كانت توضع بأشراف الفاتيكان. وفي عام ١٩٠٥ افتتح الإباء الكرمليون مدرسة (ثانوية بغداد) وكان يدرس فيها خمسه من المبشرين الفرنسيين(٣٣).

في عام ١٨٨٨ أسس الآباء الكرمليون ديرا جديدا، التحق به عدد من طلاب علم اللاهوت والدراسات الدينية، والذين كانوا يدرسون اللغات مثل العربية والفرنسية وأدبهما. وقد تخرج من هذا الدير مجموعة من رجال الدين الكرمليين الذين رفدوا حركة الأدب والثقافة في بغداد بالعديد من الأعمال الأدبية ومن اشهرهم الاب انستاس ماري الكرملي (١٨٦٦-١٩٤٧)(٣٤)، الذي رأس تحرير أول مجلة تصدر في بغداد تعنى بالأدب واللغة العربية وبالبحوث الدينية سميت (زُهيرة بغداد) حيث صدر العدد الاول منها في ٢٥ اذار ١٩٠٥، كما رأس تحرير مجلة أخرى صدرت في نفس الفترة اسمها (الأيمان والعمل) باللغة الفرنسية، ولم تستمر كلتا المجلتين بالصدور الا لمدة عام واحد تقريبا لقلة الموارد المالية للأب انستاس الكرملي وعدم حصوله على دعم من الأرسالية الكرملية، الا انه أصدر مجلة (لغة العرب) في تموز ١٩١١ والتي استمرت في الصدور الى بدايات

الحرب العالمية الاولى حيث أُغلقت بعد أن تم نفي رئيس تحريرها الأب أنستاس ماري الكرملي خارج حدود الدولة العثمانية[٣٥]. وبالأضافة الى التعليم والثقافة، فقد نشط الأباء الكرمليون في مجال الخدمات الاجتماعية والطبية، حيث أسست أرساليتهم ملجأ للأيتام عام ١٨٩١ ودارا للعجزة عام ١٨٩٣، ومستوصف طبي عام ١٨٩٥ كان يقدم خدماته مجانا لأهالي بغداد[٣٦].

- النشاطات التبشيرية في ولاية الموصل

شهدت ولاية الموصل أول تواجد للأباء الكرمليين الكاثوليك منذ بدايات القرن الثامن عشر، ولم يكن بينهم أي راهب من أصل فرنسي وقد أضطروا الى غلق أرساليتهم في مدينة الموصل عام ١٧٢٤، بضغط من الكنائس الارثوذكسية[٣٧]. واستقر بعد ذلك في مدينة الموصل الإباء الدومنيكان[٣٨] منذ عام ١٧٥٠، وكانت إرساليتهم تضم اثنين من الآباء من أصل ايطالي، وكانا يقدمان الخدمات الطبية إضافة إلى عملهم الكنسي، وقد رحب بهم والي الموصل الحاج حسين باشا الجليلي وقربهم إليه، وذلك في دعم منه لنشر المذهب الكاثوليكي في ولاية الموصل، للحد من نفوذ بطريرك القوش النسطوري المحتمي بأمراء الكرد البهدينان أعدائه المجاورين[٣٩]. وقد استمر عمل الآباء الدومنيكان من الايطاليين الى العام ١٨٥٦ إذ تم استبدالهم بآخرين فرنسيين[٤٠].

وبأعتقادنا، فأن من الأسباب التي دفعت بالحكومة الفرنسية الى عدم الأهتمام بأرسال رجال الدين الفرنسيين الى الموصل قبل هذا التأريخ هي:

١- تركيز فرنسا على نشر تواجدها الديني والتجاري والقنصلي في ولاية البصرة ومن ثما ولاية بغداد خدمة لمصالحها التجارية والسياسية، وحسب ما جاء في أتفاقيات (الأمتيازات) الموقعة بين فرنسا والدولة العثمانية.

٢-كانت فرنسا واحدة من الدول الأوروبية الخاضعة لسلطة الأمبراطوية الرومانية المقدسة والتي تقاسمت معها الفتوحات، فللدول الحق في تحقيق أهدافها السياسية والتجارية، وللفاتيكان حقه في نشر نفوذه الديني.[٤١] وقد كانت الموصل من حصة الرهبان الأيطاليين في بادىء الأمر حالها حال عدد من مدن بلاد الشام.

٣- بعد الثورة الفرنسية عام ١٨٩٧، لم تعتمد الحكومة الفرنسية على رجال الدين في نشر نفوذها خارج حدودها، بسبب حالة التقاطع بينها وبين رجال الكنيسة الذين أتهمهم قادة الثورة بأنهم كانوا والأقطاعيين على حد سواء، حيث نزعت الدولة عن الكنائس الفرنسية ورجالها الأملاك الزراعية والعقارية، وفرضت على رجال الدين عدم الولاء للفاتيكان، ومنعت أستلام ضريبة العشر التي كانوا يفرضونها على المواطنين، وفرضت قيودا صارمة على رجال الدين وحددت لهم رواتب شهرية عوضا عن الأموال الطائلة التي كانوا يتقاضونها عن طريق الكنيسة.[٤٢]

وقد رأس أول إرسالية دومنيكية أعضائها من الرهبان الفرنسيين الأب الفرنسي (بيسون) والذي كان يتمتع بموهبة الرسم[٤٣]، وهو أول فرنسي يقيم في مدينة الموصل التي وصلها عام١٨٥٦، وهذا يعني أنه أول تواجد فرنسي في هذه المدينة وليس عام ١٧٥٠ الذي كان بعض المؤرخين يعتمدونه خطئا كبداية للتواجد الفرنسي في الموصل معتقدين بأن الأباء الدومينكان هم جميعهم من الفرنسيين، في حين أن هذه الرهبانية كانت تضم الأيطاليين الى جانب الفرنسيين من رجال الدين.

ساهم الآباء الدومنيكان الفرنسيين في المحافظة على وجود النشاط الكاثوليكي بدون ان ترافقه أزمات حادة كالتي كانت تحصل مع الدومينكيين الايطاليين، وقد توسعت نشاطات الاباء الدومنيكان في مجالات التعليم والثقافة والطب، وذلك بعد ان حظيت أرساليتهم بدعم كبير من لدن الحكومة الفرنسية لأهمية الموصل الستراتيجية، بالإضافة ألى أهميتها ألتاريخية والدينية ولما تملكه هذه الولاية من اديرة وكنائس ارثوذكسية قديمة، فعملية تحويل مذهب اتباع هذه الكنائس من الموصليين الى الكاثوليكية، فانه يعني تحول اتباعها المنتشرين في بقية الولايات العثمانية الى الكاثوليكية بشكل تلقائي، الامر الذي سيخدم بالنتيجة المصالح الفرنسية. لهذا كانت هذه المسالة بالذات تولد حساسيات طائفية وعرقية مع الموصليين سواء أكانوا مسيحيين أو مسلمين. وعلى الرغم مما تقدم، فان للآباء الدومنيكان الفضل في نشر الثقافة والتعليم في الموصل، وان كان في نطاق محدود مقتصراً على أبناء الطائفة المسيحية، الا انه كان له الاثر الايجابي في مجمل الحركة الادبية والثقافية في عموم العراق. فقد افتتحت الارسالية الدومنيكانية في عام

١٨٥٤(مدرسة الاباء الدومنيكان الابتدائية المختلطة) في مدينة الموصل، وكانت تدرس فيها مناهج الدراسة الفرنسية[٤٤] وفي نفس العام أسس الأباء الدومنيكان مدرستين في ضواحي ولاية الموصل، فضلاً عن اثنتين في سنجق كركوك[٤٥]. كما حظي تعليم البنات من لدن الراهبات الدومنيكات وبمساعدة الحكومة الفرنسية بنصيب وافر، فقد تم في عام ١٨٧٣ افتتاح (مدرسة أخوات المحبة) في الموصل، أخذت على عاتقها تعليم وتدريب البنات المسيحيات والمسلمات على فنون الخياطة والتطريز[٤٦].

ولم يقتصر الأمر على التعليم فقط، فقد كان للآباء الدومنيكان قصب السبق في مجالي الطباعة والنشر وما يتعلق بالصحافة، اذ أسسوا في عام ١٨٥٨ مطبعة حجرية باسم (مطبعة الدومنيكان)، في محلة الساعة وهي إحدى محلات الموصل المعروفة[٤٧]. لقد خدمت هذه المطبعة حركة النشر والتأليف في العراق. ففي غضون تلك المدة طبع فيها اكثر من ٥٠٠ كتاب في مختلف المواضيع الدينية والتاريخية واللغوية وبلغات عديدة منها، العربية والفرنسية والتركية والكلدانية[٤٨]. كما أسهم الأباء الدومنيكان في إصدار أول مجلة في العراق هي (مجلة أكليل الورد) صدر العدد الاول منها باللغة العربية في كانون الاول ١٩٠٢ وباللغة الكلدانية في آب ١٩٠٤ وباللغة الفرنسية في كانون الأول ١٩٠٦. والتي استمر صدورها الى كانون الثاني ١٩١٠[٤٩]. كما أسهموا كذلك في إدخال آلات التصوير الفوتوغرافي والفانوس السحري والآلات الموسيقية الغربية ولأول مرة الى مدينةالموصل[٥٠]. وفي النشاط المسرحي، يعود الفضل للأباء الدومنيكان في استحداثه في العراق الذي لم يشهد تاريخه هذا النوع من الفن بالصورة المتعارف عليها، إذ قدم الآباء الدومنيكان على مسرح مدرستهم بالموصل في عام ١٨٨٩ مسرحية نبوخذ نصر التي كتب نصها الخوري هرمز نورسو المدرس في المدرسة المذكورة[٥١]. وكان من نشاطات الآباء الدومنيكان البارزة في هذه المدينة، هو تقديم الخدمات الطبية، وقد برز منهم الأب الطبيب الفرنسي (هياسانت بيسون) والأب الطبيب (لويس ليون) والأب الطبيب (كالان) حيث كان يساعدهم راهبات فرنسيات منذ عام ١٨٧٣، وقد أفتتحوا مستوصف حديثاً في الموصل عام ١٨٧٦[٥٢].

الهوامش

١) تكونت امارة بني عثمان في اسيا الصغرى وهي واحدة من عدة امارات تركية تكونت بعد تفكك دولة سلاجقة الروم عام ١٣٠٧ م، واخذت هذه الامارة تشق طريقها منذ عام ١٣٢٦ بعد ان حققت توسعا على حساب الامارات المجاورة منها امارة قرصان التي تم ضمها عام ١٣٩٢، وكانت بداية تكون هذه الامبراطورية هي عندما تمكن اميرها محمد الفاتح من اسقاط الدولة البيزنطينية والاستيلاء على القسطنطينية عام ١٤٥٣، وكانت هذه الدولة الوليدة اول بلد اسلامي يستخدم الاسلحة النارية، فبواسطة مدفعين عملاقين تمكن بواسطتها العثمانيون من تدمير سور القسطنطينية والاستيلاء عليها .

مجموعة باحثين، العلاقات العربية التركية من المنظورين العبير والتركي، جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الاسلامي، استانبول، ٢٠٠٠، ص١٠٤– ١٠٥ و ص١١٥ .

٢) مجموعة باحثين، العلاقات العربية التركية، مصدر سابق، ص٣٦–٤١.

٣) خليل ساحلي اوغلي، من تاريخ الاقطار العربية في العهد العثماني، منظمة المؤتمر الاسلامي، استانبول، ٢٠٠٠، ص٢٧٢ .

٤) د. احمد سعيد نوفل، العلاقات الفرنسية العربية، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع الكويت، ١٩٨٤، ص٢٦.١

٥) للتفصيل ينظر : د. علي محافظة، موقف فرنسا والمانيا وايطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ – ١٩٤٥، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص١٥ . وخليل ساحلي اوغلي، مصدر← سابق، ص٢٧٢ – ٢٧٣ . و د. محمد علي الداوود، محاضرات عن الخليج العربي والعلاقات الدولية ١٩٨٠–١٩١٤، جامعة الدول العربية، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦٠، ص١٨٩ .

(6 G.LORIMER ،Gazetter of the Gulf ،Oman and central Arbia ،VOL.1 ، Historical ،Part IB ،Calcutta 1915 ،pp.1207-1208.

٧) الأب الدومنيكي جان موريس فييه، الآثار المسيحية في الموصل، ترجمة نجيب قاقو، مطبعة لطيف، بغداد، ٢٠٠٠، ص٢٧–٢٨ .

٨) أصدر البابا السكندر السادس عام ١٤٩٣ منشوراً بابوياً يقضي بأقتسام العالم الغير مسيحي بين الدولتين أسبانيا والبرتغال بموجب خط وهمي يقع في المحيط الأطلسي على المحيط

الأطلسي على بعد ٣٧٠ فرسخاً أو ٤٨ و ٤٩ درجة غربي كرنتش، فما يقع شرق هذا الخط هو للبرتغال وما يقع غربه لأسبانيا، وبضوء هذا المنشور عقدت اتفاقية (تورد سيكس ١٩٩٤) بين البلدين، د. علي غنام، مصدر سابق، ص١٨.

٩) قصي كامل شبيب، اهمية مضيق باب المندب في التأريخ الحديث والمعاصر –رسالة ماجستير مقدمة الى المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية، جامعة المستنصرية، ١٩٧٦، ص٣١.

١٠) لجأت بريطانيا إلى إرسال المبشرين البروتستانت الى العراق منذ عام ١٨٣٠ حيث وصل بغداد في ذلك العام المبشر الانكليزي (غروفز A.N.Groves). وكانت هذه الإرساليات بأشراف كنيسة كانتربري والتي يخضع لها كذلك البروتستانت الانجيليون في الولايات المتحدة وعلى نفس الخطى ولنفس الأسباب لجأت الولايات المتحدة الأمريكية لهذا الأسلوب حيث تأسس فيها (مجلس الوكلاء الأمريكي) الذي اخذ يبعث الإرساليات التبشيرية البروتستانية إلى الشرق، وقد افتتحوا أول محطة لهم في بيروت عام ١٨٢٥، وفي بغداد عام ١٨٣٠ وفي الموصل عام ١٨٣٩ وحصروا نشاطاتهم بين (النساطرة)، فبعد ان تحولوا من المذهب الارثوذكسي إلى المذهب البروتستانتي أطلق عليهم تسمية (النساطرة الاثوريون) أو (الاثوريون) فيما بعد، والذين ليس لهم اية علاقة بالاشوريون القدماء .
ينظر: حارث يوسف غنيمة، البروتستانت والانجيليون في العراق، ج٣، مطبعة الناشر المكتبي، بغداد، ١٩٩٨، ص٤٧ .و د. جميل موسى النجار، التعليم في العراق في العهد العثماني الاخير ١٨٦٩–١٩١٨، دار الشؤون الثقافية العامة، (٢٠)، بغداد، ٢٠٠١، ص ٢٥٥–٢٥٦ .

١١) سهيل قاشا، تاريخ ابرشية الموصل للسريان الكاثوليك، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٨٥، ص٢٣.

١٢) سهيل قاشا، الموصل في مذكرات الرحالين الأجانب في فترة الحكم العثماني١٥٣٤ – ١٩١٨، بغداد، ١٩٨٧، ص٢٣–٢٤ .

١٣) الكرمليون : رهبانية كاثوليكية تأسست على جبل الكرمل عام ١١٨٥، ثم انتقلت الى روما عام ١٢٣٨، اتسعت نشاطاتها بعد ارتباطها بـ (مجمع انتشارالأيمان– بروبغندا) في الفاتيكان، ينظر: الأب جان موريس فييه، الآثار المسيحية : مصدرسابق، ص٢٨.

١٤) ستار جبار حسين، العلاقات العراقية الفرنسية ١٩٢١-١٩٥٦، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية أبن رشد، جامعة بغداد، ١٩٩٩، ص٥٠.

١٥) إن المسيحيين العراقيين في هذه الولاية يشكلون اقل نسبة لهم في بقية الولايات العراقية، حيث كانت نسبتهم تقدر بـ (٧.٢%) أي بحدود ٢.٨٥٠ ألف نسمة من مجموع ٦٨٠.٠٠٠ ألف نسمة مجموع سكان ولاية البصرة. لحد عام ١٨٩٠ حسب إحصائيات (*Cuinet*)، ينظر: د. جميل موسى النجار، مصدر سابق، ص٢٢٠-٢٢١ .

١٦) رحلات سبستياني الى العراق، ترجمة وتعليق الأب د.بطرس حداد، شركة الديوان للطباعة، بغداد، ٢٠٠٤، ص ٥٠.

١٧) للمزيد ينظر: ستيفن همسلي لونكريك، مصدر سابق، ص١٤٠، و د. صالح محمد العابد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨-١٨١٠، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٩، ص ٥٦.

١٨) د.جميل موسى النجار، مصدر سابق، ص٢٢٢-٢٢٣.

١٩) ستيفن همسلس لونكريك، مصدر سشابق، ١٥٨.

٢٠) د. جميل موسى النجار، مصدر سابق، ٢٨٣ – ٢٨٤.

٢١) الكبوشيون: وهم فرع من رهبانية القديس فرنسيس الاسيزي، تأسست عام ١٥٢٨ في روما . ينظر: سهيل قاشا، مصدر سابق، ص٦٩.

٢٢) روفائيل بابوا اسحق، تاريخ نصارى العراق، مطبعة المنصور، بغداد ١٩٤٨، ص١٢٧

٢٣) الاب د. بطرس حداد، ديارات بغداد القائمة، مجلة بين النهرين، العددان ٦٩-٧٠، ١٩٩٠، ص٩٨-٩٩ .

٢٤) ستار جبار حسين، مصدر سابق.ص.١٤

٢٥) فارس تركي محمود، مصدر سابق، ص٢٣.

٢٦) روفائيل بابواسحق، مصدر سابق، ص١٢٨.

٢٧) الأب د. بطرس حداد، مقتطفات من تقرير المطران بايه عن العراق عام ١٧٥٣، النهرين (مجلة)، بغداد، العدد٤٣، ١٩٨٣، ص٢٣٠.

٢٨) الاب د. بطرس حداد، مصدر سابق، ص ٢٣٠ . وروفائيل بابو اسحاق، مصدر سابق، ص١٢٨. و ستار جبار حسين، مصدرسابق، ص٧

٢٩) الأب د. بطرس حداد، مصدر سابق، ص ٩٩ .

٣٠) د. عبد العزيز نوار ود. عبد المجيد نعنعي، تأريخ المعاصر –أوربا، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، ١٩٧٣، ص ٣٥-٤٠.

٣١)- وهي من اشهر الرهبانيات النسائية في العالم واسمها بالكامل (أخوات المحبة الدومنيكات لتقدمة العذراء القديسة) تأسست في فرنسا عام ١٦٨٤م. الأب بطرس حداد، مصدر سابق، ص ٩٩.

٣٢) د. جميل موسى النجار، مصدر سابق، ص٢٦٨-.٢٦٩

٣٣) مجموعة باحثين، العراق بمواجهة التحديات، مصدر سابق، ص١٨١-١٨٢

٣٤) ولد (الكرملي) في بغداد عام ١٨٦٦ من اب عراقي وام لبنانية، بعد انهائه لدراسته في مدرسة الاباء الكرمليين تعين فيها مدرسا للغة العربية وآدابها وهو في عمر ستة عشر عاما، درس في بيروت اللغة العربية واللاتينية واليونانية ثم سافر الى فرنسا لدراسة الفلسفة وعلم اللاهوت، ومنها سافر الى أسبانيا ثم عاد إلى بغداد بعد أن نال درجة (قس) ليدير المدرسة الكرملية ويدرس فيها العربية والفرنسية . كان واحدا من أهم المهتمين باللغة العربية وادابها وكتب عدد كبير من المقالات والبحوث في اللغة والأدب في اثنتان وستون مجلة وجريدة عربية و أوروبية . انتخب ممثلا عن العراق في المجمع اللغوي العربي الذي أنشا في القاهرة عام ١٩٣٣ . توفي في بغداد عام ١٩٤٧

٣٥) د.صادق ياسين الحلو، مصدر سابق، ص٢٢٥ ؛و د . عناد اسماعيل الكبيسي، الكرملي ومجلة لغة العرب ودورها في الحداثة، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٢، ص٢٠ .

٣٦) مجموعة باحثين، العراق في مواجهة التحديات، مصدر سابق، ص ١٨١ .

٣٧) جان موريس فييه- الاثار المسيحية في الموصل – مصدر سابق- ص٢٨.

٣٨) تم ارسال الاباء الدومنيكان الى الموصل تلبية لطلب من القس خُدر الموصلي (١٦٩٧-١٧٥٥) والمقدم الى (المجمع الشرقي في روما) وذلك ليحلوا محل الأباء الكبوشيين الذين غادروا الموصل.، وقد قدم عدد منهم الى بغداد في عام ١٦٢٨ ومن ثم بعد ذلك الموصل؛ والاباء الدومنيكان رهبانية كاثولكية اشتقت تسميتها من اسم رجل دين أسباني يدعى دومينيك (Domimique ١١٧٠-١٢٢١) ويعني بالعربية عبد الاحد . ينظر: سهيل

قاشا، مصدر سابق، ص٢٧. وابراهيم خليل العلاف، مسيرة الآباء الدومنيكان خلال ٢٥٠ عام في الموصل، مجلة بين النهرين، العدد، ١٧-١٨، العام ٣٠، ٢٠٠٢، ص٨٠.

٣٩) جان موريس فييه، مصدر سابق، ص٢٨

٤٠) بلغ عدد الرهبان الفرنسيين الذين خدموا في الموصل من عام ١٨٥٦ وحتى مغادرة آخر واحد منهم عام ١٩٨٥ (١٠٤) راهباً، بينما كان عدد الرهبان الإيطاليين الذين سبقوهم في الخدمة في الموصل من عام ١٧٥٠ الى ١٨٥٦ هو (٣٠) راهب فقط ؛ ينظر : ابراهيم خليل العلاف، مصدر سابق، ص.٨٣

٤١) قصي كامل شبيب، مصدر سابق، ص٣٢-٣٧

٤٢) د.عبد العزيز سليمان نوار، و د.عبد المجيد نعنعي، التأريخ المعاصر أوروبا، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣، ص٣٨-٤٠

٤٣) الاب يوسف حبي، النشرالمسحي في العراق (بحث)، مجلة بين النهرين-بغداد، العدد٦٨، ١٩٨٩، ص٣٣.

٤٤) جميل موسى النجار، مصدر سابق، ص.٢٧٩

٤٥) ابراهيم خليل العلاف، مصدر سابق، ص٨٠.

٤٦) ذنون يونس الطائي، مورفولوجيا مدينة الموصل في العهد العثماني، "دراسات تاريخية" (مجلة)، بغداد، العدد١، العام الثالثة، ٢٠٠١، ص٣٩؛ ابراهيم خليل أحمد، حركة التربية والتعليم، موسوعة الموصل الحضارية، الجزء الرابع، ط١، الموصل، ١٩٩٢، ص٣٣٩.

٤٧) ابراهيم خليل أحمد، النشر والصحافة في الموصل ١٧٥٨-١١٩١٨، موسوعة الموصل الحضارية، مصدر سابق، ص٣٦٢.

٤٨) ابراهيم خليل العلاف، مسيرة الآباء الدومنيكان، مصدر سابق، ص٨٤.

٤٩) هلال هرمز كبارا، اكليل الورد أول إصدار ديني في تاريخ الصحافة المسيحية في العراق، مجلة نجم المشرق، العدد ٣٢، العام الثامنة، ٢٠٠٢، ص٥٠٨.

٥٠) ابراهيم خليل العلاف، مسيرة الاباء الدومنيكان، مصدر سابق، ص٩٥.

٥١) عمر الطالب، القصة في الموصل، موسوعة الموصل الحضارية، مصدر سابق، ص٣٥١.

٥٢) ابراهيم خليل العلاف، مصدر سابق، ص٩٢؛ محمود الحاج قاسم محمد، الطب في الموصل، موسوعة الموصل الحضارية، ج٤، مصدر سابق، ص٣٨٥.